مع الله !(*)
(١)

دعتنى بعض التعليقات ،على ما كتبته للأهرام بعدديه ١، ١٥/ ٤/ ٢٠١٠ عن التوحيد والوحدانية، إلى العودة إلى الكتاب الضافى : «الله» ـ بحث فى العقيدة الإلهية، للأستاذ المفكر الجليل عبـاس محمود العقاد .

فى تقديمه للكتاب يقول العقاد : «موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ اتخذ الإنسان ربًا إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد . وقد بدأناه بأصل الاعتقاد فى الأقوام البدائية ، ثم لخصنا عقائد الأقوام التى تقدمت فى عـصور الحضارة ، ثم عقائد المؤمنين بالكتب السماوية ، وشفعنا ذلك بمذاهب الفلاسفة الأسبقين ، ومذاهب الفلاسفة التابعين ، وختمناه بمذاهب الفلسفة العصرية ، وكلمة العلم الحديث فى مسألة الإيمان . وكانت عنايتنا فيه بالعقيدة الإلهية دون غيرها . فلم نقصد فيه إلى تفصيل شعائر الأديان ولا إلى تقسيم أصول العبادات ،لأن الموضوع على حصره فى نطاقه هذا أوسع من أن يستقصى كل الاستقصاء فى كتاب . وأن موضوعا كهذا الموضوع المحيط لعرضة للتشعب والتطويل كيفما تناوله الكاتب ومـن أى جانب تحراه ، فلا بد فيه من إيجاز ، ولا بد فيه من اكتفاء . غير أننا تحرينا الإيجاز وتحرينا معه أن يغنينا فيما قصدناه ، وذاك هو الإلمام بأطوار العقيدة الإلهية على وجهتها إلى التوحيد ، وإن تكن هذه الأطوار مفهومة العلل والمقدمات وأن الله الذى هدى الأمم كافة على هذا النهج

(*) المال ١٤/ ٤/ ٢٠١٠ .

البعيد ، لكفيل أن يهدينا عليه ، وأن يوفقنا لسداد النظر فيه . فلا هداية إلاّ به ، ولا معوّل إلا عليه . إنه سميع بصير مجيب» .

إيمان العقاد ، ودعاؤه إلى ربه أن يهديه فيما يكتبه ، لم يتعارض بداهة مع خطته فى بحث أطوار العقيدة الإلهية .. فالإنسان ترقى فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات .. فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته . فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى . وينبغى أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات ، لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبًا وأطول طريقًا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى . وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهى أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت فى ظلام من أمرها فوق ظلام ، ولعلها لا تزال . فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة فى عصر واحد .

فى هٰذا الكتاب الضافى الذى صدرت منه عدة طبعات منذ نُشر لأول مرة فى سبتمبر ١٩٥٤ فى كتاب الهلال ، تناول العقاد بعد مقدمة ضافية فى العقيدة الإلهية ـ تناول هذه العقيدة فى دول الحضارة القديمة ، كما تناولها فى الأديان السماوية ، وفى مذاهب الفلاسفة السابقين ، وفى آراء الفلاسفة المعاصرين ،

ثم فى رأى العلم الحديث . ولا تعارض فى هذا التناول ، ولا مساس بداهة ، بالعقيدة الإلهية كما خلصت إليها الأديان واضحة جليّة مصفاة . فتاريخ أطوار العقيدة شىء ، وجوهر العقيدة شىء آخر لم يرتق إليه الإنسان إلاّ عبر رحلة طويلة .

يعرف علماء المقابلة بين الأديان ، فيما أورد العقاد ، أن العقيدة الإلهية مرت لدى الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب ـ بثلاثة أطوار : دور التعدد ، ودور التمييز والترجيح ، ودور الوحدانية . وفى مرحلة التعدد كانت الأرباب أنواعًا شتى:

(١) أرباب الطبيعة، كالشمس والقمر وقوى الطبيعة .

(٢) أرباب الإنسانية ، وهى الأرباب التى تقترن بأعمال الأبطال والقادة المحبوبين أو المرهوبين .

(٣) أرباب الأسرة من الأسلاف الغابرين.

(٤) أرباب المعانى، كرب الحرب أو العشق وما شابه.

(٥) أرباب البيت ، كرب الموقد أو البئر.

(٦) أرباب النسل والخصب ، وغالبيتها العامة صورة الإناث أو الأمهات واهبات الخلود.

(٧) آلهة الخلق التى ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والكائنات.

(٨) الآلهة العليا ، وهى آلهة الخلق التى تدين عبادها بشرائع الخير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق ، وتضمن السعادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء .

واختلفت الأمم والشعوب فيما أخذت أو لم تأخذ به ـ فيعبادتها ـ من هذه الأرباب ، فكفار العرب كانوا قبل البعثة المحمدية يذكرون الله على ألسنتهم ، ويسمون أبناءهم عبد الله وتيم الله ، وبعضهم يعبد الأسلاف فى صورة الأصنام ، وأناس آخرون دان بعضهم بالمسيحية ، وبعضهم باليهودية . وفى مصر وصل المصريون إلى التوحيد ، وبقيت أسماء الإله الواحد متعددة حسب التعدد فى مظاهر التجلى ، فأوزوريس هو إله الشمس ، و «رع» الإلـه الخالق ، و«خنوم» الإله المعـلم الحكيم ، وهكذا ..

ونعرف أن اليهود عبدوا العجل بعد عبادة الله الواحد ، وسموا الإله الواحد باسم الجمع وهو فى العبرية «الوهيـم» أو الآلهة .. ثم أصبح الجمع علامة التعظيم .

أما التوحيد فكان نهاية تلك الأطوار كافة فى جميع الحضارات الكبرى ، ثم كانت الأديان الكتابية بعد كل هذا ـ هي التى بلغت بالتوحيد غاية مرتقاه .

*****